الفصل الخامس عشر

رسائل من الأرض الموعودة

خلال الأشهر التي مكث فيها ريتشارد في صقلية، راح يقيّم الأنباء التي كانت تصله حول وضع الأعداء وحول خصمه اللدود صلاح الدِّين.

في السنوات الأربع منذ سقوط القدس في يد المسلمين، قلّما وجد السلطان الوقت ليستريح. لم يعد لمملكة القدس اللاتينيّة من وجود. لقد اختفت مدنها وشبكة قلاعها الدفاعية، واقتصر قلبها على بضعة متاريس تافهة عند الساحل. وأصبحت كلّ المرافىء جنوب طرابلس، باستثناء صور، في قبضة المسلمين. ومن شبكة الحصون الصليبية الهائلة على الساحل وفي داخل البلاد، لم يبقَ في يد المسيحيين سوى حصن الأكراد وحصن المرقب. لكن هذا كان أفضل من لا شيء. كان لدى ريتشارد هدف محدّد، وهو رأس جسر ساحلي لا يزال موجوداً حتى بعد الهزائم المسيحية الكثيرة ومنه قد يطلق حملته للاستيلاء مجدّداً على الديار المقدَّسة: صور، هذه المدينة المعزولة والمحفوفة بالمخاطر، كانت نتيجة خطأ فادح ارتكبه صلاح الدِّين مباشرةً بعد استيلائه على القدس. وكان الأوّل بين خطأين خطيرين اثنين.

في طلائع شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1187م، تحرّك السلطان نحو

صور للمرّة الثانية. ولو تمكّن من احتلال هذا المعقل الأخير، لكان نجح في إلقاء المسيحيين في البحر بكلّ معنى الكلمة. إذ لم يكن الباقي أكثر من مجرّد عملية تطهير. منذ أوّل هجوم لصلاح الدِّين في مطلع تلك السنة، استطاع المتمرّد البارع، كونراد دو مونتفرّا، أن يعزّز دفاعات صور ويدعمها دعماً معتبراً. وتابع اللاجئون المسيحيون توافدهم إلىٰ هذه المدينة المعزولة من القدس ومن أماكن محرَّرة أخرى. ويعود ازدهار صور بهذا الشكل إلىٰ سلوك صلاح الدِّين الليّن وغير الحكيم تجاه الأسرى والسكان.

كانت صور مدينة محصّنةً تحصيناً رائعاً، وتقع في محيط طبيعي مميّز وتشتهر بزجاجها وسكّرها، وصبغتها الأرجوانية الفريدة، وشعبها الودود والمضياف، وخصوبة السهول المحيطة بها، التي تكلّم عنها سليمان في نشيده واصفاً إيّاها بأنّها «ينبوع من الحدائق وبئر من المياه الحيّة». في القدم، كانت هي كبرى مدن الفينيقيين، والمكان الذي منع فيه المسيح من الاستمرار في تجواله بمحاذاة الشاطىء، ليس بعيداً عن مكان سيره على الماء، وحيث قال المخلّص لامرأة من كنعان سكن الشيطان ابنتها: «يا امرأة، عظيم هو إيمانك»، قبل أن يشفي الابنة. مثل يد تمتدّ داخل البحر، كانت المدينة بحكم الجزيرة، رباعية الزوايا من حيث الشكل، تحيط بها من جهات ثلاث مياه مضطربة تخبِّئُ صخوراً مترصّدةً، ومتّصلةً باليابسة بواسطة ممرّ يبلغ طوله مسافة رمية قوس. وكانت تسيّج هذه المدينة المعزولة أسوار بسماكة اثنين وعشرين قدماً، مجهّزة باثني عشر برجاً قوياً. ومواجهة مع مدخلها البرّي الشرقي بمحاذاة الممرّ الضيق الذي شيّده الناس وأُطلق عليه اسم بانيه، الإسكندر الأكبر، كانت هناك أبراجٌ ضخمة، وشاهقةٌ، ومتجاورة. أمّا الأرض التي كان يمكن أن ينطلق منها أيّ هجوم على المدينة فكانت ضيقةً جدّاً.

فقط بهجوم مشترك برّي وبحري كان يؤمل أن يُملك المكان، إلاّ إذا كان العدو مستعدّاً لتجويع المدينة وإخضاعها بحصار طويل وغير محدّد. ولم يكن

هذا أسلوب صلاح الدِّين. كان بإمكان كونراد دو مونتفرّا أن يراهن مطمئناً على أنّه في غياب نتائج سريعة، يفقد السلطان وجيشه كلّ صبر وطاقة على الانتظار.

عند الناحية البحرية الشمالية كان هناك مدخل واسع يُفضي إِلىٰ ميناء داخلي وهو الفتحة الوحيدة في الأسوار. يحرس هذا المدخل برجان وتسدّه كجسر سلسلة ضخمة كي ينخفض أمام السفن الصديقة ويرتفع عند وجود عدوّ قبالة الساحل، مثلما يحدث الآن مع خمسة من قوادس صلاح الدِّين. وكان ذلك المرفأ المحمي مجهّزاً لاستقبال أكبر السفن الحربية في ذلك الزمان.

وصل صلاح الدِّين إِلىٰ خارج أسوار المدينة في منتصف تشرين الأول/ نوفمبر من سنة 1187م وبدأ حصاره. بالنسبة إِلىٰ قواته البرّية كانت المهمّة عسيرة، وذلك لأنّ ممرّ الإسكندر كان ضيقاً ومكشوفاً. فأسرع كونراد بإرسال عدّة قوادس من مينائه الداخلي ليضايق الجنود المسلمين ويضرب آلياتهم من كلّ جهة من الممر، وبالفعل أنهك العديد من المهاجمين. ولمواجهة سفن كونراد أرسل صلاح الدِّين في طلب عشر سفن من البحرية المصرية، كانت راسيةً آنذاك في عكّا، لتتحرّك إِلىٰ صور وتضرب حصاراً. ممّا أدَّى إِلىٰ وقفٍ للعمليات استمرّ حتّى عيد الميلاد.

كانت خمس من سفن صلاح الدِّين مكلّفة بمهمّة الحصار الليلي. ولكن كان على رأسها بحّارة قليلو الخبرة يفتقرون إِلىٰ التدريب الحسن، فأحسّ كونراد بأنّ في مقدوره أن يعلّم هؤلاء الأغرار درساً جيداً. وفي ليلة الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر قام المركيز مونتفرّا بغارة جريئة عند الفجر. فعند شروق الشمس، كان البحارة المصريون قد هدهدهم النعاس معتقدين أنّهم أتمّوا واجبهم الليلي، فأخلدوا إِلىٰ النوم مطمئنّين، إِلىٰ أن أيقظتهم ضربات بحّارة كونراد المفاجئة. هكذا قفز الكثير من المسلمين إِلىٰ البحر وجُرّت القوادس المصرية إِلىٰ داخل الميناء. وعندما علم صلاح الدِّين بالكارثة، أمر سفنه الباقية بأن تبحر مسرعةً إِلىٰ بيروت، كمن وجد نفسه فجأةً من دون سلاح. لكنّ سفن

كونراد تابعت مطاردتها، فسحب المسلمون مذعورين سفنهم إلىٰ الشاطىء وهربوا. وكما لو أنّ هذا الخزي لا يكفي، اضطر صلاح الدِّين إلىٰ تدمير مراكبه عند الشاطىء كي لا تقع في أيدي الأعداء.

بعد ضرب قدرته البحرية حالياً وقبل حلول فصل الشتاء، قرّر صلاح الدِّين أن يحدّ من خسائره. كانت سنة 583 للهجرة (1187م) حافلةً بالانتصارات، ولا يجوز تلطيخ السجل بجهود لا طائل من ورائها. كما أنّ قوّاته المتعبة كانت في حاجة إلىٰ استراحة قبل التقدّم الآتي. وهكذا بدأ انسحابه في الأيام الأولى من السنة الجديدة.

هل كانت هذه نقطة التحوّل؟ عندما شاهد المدافعون المسيحيون من أسوارهم كيف انسحب الأعداء وأحرقوا آليات حصارهم الضخمة الغائصة في الوحل، راحوا يهتفون من فرحهم، لأنّ بريق الأمل لاح فجأة. فطالما بقيت مدينتهم مسيحية، كان الدعم الأوروبي ممكناً. وخلال فصل الشتاء، كان أمام المدينة شهور لتقوّي نفسها وتوسّع محيطها صوب الداخل الخصب والقريب. وصار يمكن للفرنجة أن يؤمنوا بأنّ دفاعهم الجريء أحبط عزيمة القوات المسلمة إلىٰ الأبد.

نجت صور من الهلاك. وهكذا فإنّ مملكة القدس، مهما تكن صغيرة، لا تزال حيّة. وعندما وصلت هذه الأخبار إلىٰ أوروبا، أصبح كونراد دو مونتفرّا فجأةً بطل الساعة. وقد كرّمه أكبر الشعراء الغنائيين في ذلك العصر، برتران دو بورن، بقصيدةٍ جاء فيها:

«أعرف لمن يعود الفضل الأكبر، إلىٰ السير كونراد من دون شك، لأنّه دافع عن نفسه في صور ضد صلاح الدِّين وفريقه الهزيل. ليساعده الرب! لأنّ المساعدة تأتي رويداً. هو وحده سينال المكافأة لأنّه وحده عانى وتعذّب».

أمّا في صفوف صلاح الدِّين فقد وقع عليه اللوم بسبب الجراح التي سبّبها

لنفسه. وقد كتب معلّق عربي باستخفافٍ[1] قائلاً: «لم يكن لأحدٍ ذنب في أمر صور غير صلاح الدِّين، فهو الذي جهّز إليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكّا وعسقلان والقدس». خلال فصل الشتاء وبداية الربيع، راجع صلاح الدِّين دروس السنة المنصرمة في عكّا ودمشق ووضع مخطّطاً لإتمام العمل. وكان يقوم أساساً على مهاجمة الضعيف وتجنّب القوي.

لكن بدا أنّه في حاجة إلىٰ درس إضافي ليحسم أمر خطّته نهائياً. ففي 30 أيار/مايو سنة 1188م، حاصرت قواته كرك الفرسان، أكبر الحصون الصليبية ويعرف لدى المسلمين باسم حصن الأكراد. ينتصب هذا المبنى الهائل عالياً فوق أحد الوديان. وكان تصميمه ككتلة متراصة من ثلاثة أبراج نصف دائرية ضخمة، وحلقات من التحصينات مشتركة المركز، وأسوار شاهقة، تتويجاً للهندسة العسكرية الصليبية. وسرعان ما ثبطت هيئته المهيبة همّة السلطان، الذي قرّر أن يتجاوزه. لقد فهم الدرس الآن.

من تجربته في صور وحصن الأكراد ظهرت معالم الخطّة الجديدة لهذه الحملة الشمالية. منذ تلك اللحظة، انطلق صلاح الدِّين للاستيلاء على القواعد الصليبية السهلة وتخطّى قلاع حصن الأكراد، والمرقب، الرابضة، القاتمة، المشرفة على البحر جنوب اللاذقية، وقلعة صافيتا، المعروفة بالحصن الأبيض، وكلّها قلاع قادرة على أن تدافع عن نفسها دفاعاً قاسياً وطويلاً. فعرف أنّه في وسعه استبعادها عن محاولاته، وأعلن لقواته خطواتها التالية، حيث الغزو من جهة الداخل محفوف بالخطر.

«سندخل المناطق من الجهة الساحلية. المؤن قليلة هناك، وبما أنّ العدو سيلقانا على أرضه، سيحيط بنا من كلّ جانب. لذلك، عليكم أن تتزوّدوا بما يكفي من الطعام لمدّة شهر».

---

(1) عن الكامل لابن الأثير 11/ 555 – 556.

بالرغم من حسّ القيادة الذي قد يوحي به هذا الكلام، فإنّ فيه مبالغةً في تقدير الخطر المباشر، فالصليبيون لم يكونوا في موقع القدرة على حصار أي شيء، وكان تحدّيهم في تفادي أن يُهزموا ويسقطوا في البحر. لكن كان هناك أساس آخر لهذه الحملة الشمالية. ففي منتصف سنة 1188م، عرف صلاح الدِّين أنّ أخبار سقوط القدس وصلت إلىٰ أوروبا محدثةً بالغ الأثر وأنّه يتمّ التحضير لخطوات للرد العسكري. كما سمع عن تنظيم حملة صليبية ألمانية على رأسها قائد يثير الإعجاب، هو الإمبراطور الكاثوليكي فريدريك بربروسا. ومن مصادره في القسطنطينية، عرف صلاح الدِّين أنّ الجيش الألماني خطّط للتحرّك برّاً عبر تركيا، ليدخل بلاد الشام من شمال أنطاكية. لذلك كان السلطان في حاجة إلىٰ التقليل من الأراضي الصليبية شمال الشام إلىٰ أدنى حدّ ممكن، لكي يصعب عليها أن تزوّد الجيش الصليبي بالمؤن عند وصوله. بعد ترك حصن الأكراد معزولاً وغير خطر، توجّه صلاح الدِّين غرباً صوب البحر وتقدّم شمالاً في قوس دائرة كبيرة، فاستولى على طرطوس وأحرقها. والتفّ حول حصن المرقب، وفاوض على استسلام جبلة، ثمّ ملك اللاذقية وكلّ ثروتها التجارية الكبيرة.

وقبل أن يتابع شمالاً إلىٰ أنطاكية، تحوّل بقواته عشرين ميلاً إلىٰ الداخل نحو حصن مميّز في صهيون، ربّما هو أكثر حصون الصليبيين رومانسية. هذه القلعة المدهشة تربض عالياً على نتوء فوق ممرّات جبلية شاهقة، ويلتقي أسفلها نهران. وكانت قلعة صهيون تحمي معبراً مهمّاً من بادية الشام في الشرق باتجاه البحر. وتلتفّ أسوارها بمحاذاة طرف الجرف الصخري، فتنشىء فناءً واسعاً أكثر انخفاضاً يسمو إلىٰ حصن داخلي وبرج مهيب. أمّا المدخل الوحيد إلىٰ هذه القاعدة المهمّة فكان عبر جسر متحرّك فوق صدع شديد الانحدار بعمق خمسين قدماً يحميه برجان مربّعان كبيران. ومثل حصون صليبية كثيرة، كان حصن صهيون يعيش وادعاً، مطمئناً إلىٰ مناعته الأسطورية.

قاد صلاح الدِّين الهجوم بنفسه. وجمع قواته الأساسية على الأرض العالية عند الشقّ الصخري وضرب البرجين بلا رحمة، ولكن بلا نتيجة. كان موقع صهيون ممتازاً للدفاع، ولكن حاميتها تستنفد بسرعة، وهذا ينطبق على الكثير من المراكز الصليبية الأخرى. فقوّتها تكمن في واجهتها المهيبة عند الصدع، لكن ضعفها في محيطها الطويل الذي يتبع حرف أنف الجبل متسامياً فوق النهرين. عندما حوّل السلطان آلات حصاره إلىٰ السياج الموجود عند جهتي الحصن الأسفل، ظهر أنّ امتداد الأسوار الطويل يعيق عملية الدفاع. فدكّت منجنيقات صلاح الدِّين قسماً من السور الشمالي في الفناء الأسفل وحوّلته إلىٰ ركام. وراح الجند المسلمون يطلقون صرخات مرعبة ويتسلّقون الوهاد شديدة الانحدار، ويتدفّقون إلىٰ داخل المكان. بعد الاستيلاء على قلعة صهيون، تمّ تغيير اسمها إلىٰ قلعة صلاح الدِّين.

استمر التقدّم شمالاً، في خطّ يتجاوز نهر العاصي، حيث وضع صلاح الدِّين يده على حصون أكثر أسطورية رابضة على قمم التلال التي على طريقه. ثم توقّف جيشه قرب أسوار أنطاكية في أواخر شهر سبتمبر؛ فاحتل جنوب المدينة قلعة بغراس، وهي معقل مهمّ يتحكّم بمدخل ممرّ بيلان وكان مركزاً دفاعياً أساسياً على طريق أنطاكية ـ الإسكندرون ـ كيليكيا. حالما استولى صلاح الدِّين عليه، أعطى الأوامر بدكّه، كي لا يستعمله الصليبيون الألمان عند وصولهم في المستقبل.

مع عرض القوّة هذا، أظهرت أنطاكيةُ نفسُها رغبةً بالسلام. وكما كان صلاح الدِّين محسناً تجاه أهل القدس المهزومين، غلّب لينه من جديد على حكمته. فبعدما قدّر أنّ الحملة الصليبية الأوروبية لن تتحقّق قبل عدّة سنوات، منح سكّان أنطاكية مهلة سبعة أشهر لتسليم المدينة بسلام.

وضع صلاح الدِّين يده إذن على أقصى أهدافه الشمالية، ثم عاد والتفت جنوباً إلىٰ بحر الجليل، حيث كان هناك حصنان إسبتاريان أحبطا طويلاً كلّ

محاولاته لدخول بيت المقدس من دمشق، لكنّه الآن استولى عليهما بسهولة وهما قلعة الشقيف التي تتحكّم بالمرتفعات جنوب البحر، ثمّ صفد، التي كانت تتحكّم بالمرتفعات الشمالية فوق البحيرة المتلألئة. وفي الوقت عينه تقريباً، أزيحت حوصلة أخرى من عنق المملكة، فقد سقط الكرك، أي حصن الغراب الذي كان المشؤوم شاتيون قد شيّده قبل موته، لعنةً على طريق الحج، أمام قوات شقيق صلاح الدِّين، بعد حصار دام ثمانية شهور. والآن أصبحت كلّ الأراضي على جانبي نهر الأردن تحت سيطرة صلاح الدِّين.

بفضل هذه الحملة الشمالية الناجحة امتلأ الجيش المسلم بمشاعر الحماس مقتنعاً بصوابية مسلكه. وبينما كان الحبل يرفع على إحدى آلات الحصار أمام أسوار صفد، التفت أحد المستشارين إلى صلاح الدِّين راضياً وذكر كلمات الحديث النبوي الشريف: «**عينان لا تمسّهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**». عندئذٍ سُحب الزند وضرب جلمود ضخم آخر الأسوار. وتابع جيش المسلمين المعركة وفي صدورهم «آيات السيف» من القرآن الكريم: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [سورة التوبة: 5].

كان الجهاد من واجبات الجند الفعليين، لكنّه أيضاً مفهوم يطال كلّ مؤمن حقيقي. تماماً كما رفع جيش صلاح الدِّين الجهاد في وجه المحتلّ المسيحي، رفع الجندي المسلم لواء جهاده الشخصي؛ إنّه جهاد القلب، حيث يكافح ضدّ ارتكاب الذنوب والمحارم، وجهاد اللسان، حيث يقاوم الرغبة في بذيء الكلام، وجهاد اليد، الذي يمنعه من القيام بأفعال كريهة، وأخيراً جهاد السيف لقتل الكفّار وخصوصاً الغزاة من أهل التثليث.

لم يقلِّل ريتشارد من شأن التزام خصمه المتقد في ساحة المعركة.

في صيف سنة 1188م، ارتكب صلاح الدِّين خطأه الفادح الثاني. فمنذ

سنة وهو يحتفظ بملك القدس السابق، غي دو لوزينيان، سجيناً في طرطوس. لكن بعدما تحوّلت مملكته إلىٰ مجرّد سراب، مع سقوط عسقلان في قبضة صلاح الدِّين، بدا الملك غير مؤذ. وكان صلاح الدِّين مستعدّاً لإطلاق سراحه شرط أن يتخلّى عن مملكته، وأن لا يعود لشهر السلاح على المسلمين، وأن يقسم على ولائه لمحرّره إلىٰ الأبد وأن يغادر الشرق الأوسط في أقرب وقت. فضلاً عن ذلك، وجّهتْ الملكة الشغوفة بالملك، سبيلا، نداءً شخصياً للسلطان، الذي يبدو أنّه يرقّ لتوسّلات النساء. في جميع الأحوال، ربّما رأى صلاح الدِّين فائدةً سياسيةً من تقديم منافس للمحنّك كونراد دو مونتفرّا بهدف زرع الشقاق في معسكر الأعداء. وهكذا في شهر تموز/ يوليو سنة 1189م، أُطلق سراح **غي**، في بادرة يعود قسم منها إلىٰ المشاعر، وقسم إلىٰ المبادىء، وقسم إلىٰ السياسة.

لكن الملك حنث بوعده على الفور. إذ قال لإكليريكييه إنّ قسمه كان تحت وطأة التهديد، فأعفوه منه مباشرة. عندئذٍ ذهب إلىٰ صور، وكانت له الجرأة في طلب مفاتيح المدينة من المركيز. كان جواب مونتفرّا غير مباشر بادىء الأمر، حيث قال بلطف: «أنا قائم مقام الملوك ما وراء البحار فقط، وهم لم يسمحوا لي بأن أسلّمك المدينة».

وسرعان ما سقطت الشكليات، وتحوّلت نبرة مونتفرّا من الرسمية إلىٰ الباردة إلىٰ المزدرية، وأغدق على الملك انتقاداتٍ لعدم كفايته الحربية. وقال إنّ **غي** خسر حقّه في أن يكون ملكاً بعد كارثة حطّين. وبصفته آخر أبطال المملكة، طالب كونراد بالعرش لنفسه. وهكذا اقتيد **غي** من دون تشريفات إلىٰ خارج المدينة، فآتى رهان صلاح الدِّين على زرع الخلاف بين الخصمين ثماره.

وبالرغم من ازدراء كلٍّ منهما للآخر، توصّل غي ومونتفرّا إلىٰ اتفاق بالنسبة إلىٰ ما تبقّى من الجيش الصليبي. فقد كان كونراد من جهة يريد تخفيف

التوتّر الذي يسود في مدينته المكتظّة، ثم لأنّه من جهة ثانية لم يكن متحمّساً للقتال بعيداً عن المدينة التي أنقذها، سمح لِغي بأن يجنّد من نجا من العساكر في قوّةٍ محارِبةٍ خارجَ جدران مدينته.

خلال سنة تكونت لدى الملك نواةٌ لقوّته الجديدة: سبعمائة فارس، أكثرهم من الداوية أَو فرسان الهيكل، بمن فيهم سيّدهم نفسه، جيرار دو ريدفور. كما انضمّ نحو تسعة آلاف رجل إِلىٰ هذه النخبة. إضافةً إِلىٰ ذلك، فإنّ عناصر القوة الصليبية، الذين بدأوا يصلون دفعةً وراء الأخرى من الدانمارك وهولندا، رفعت من هذا العدد. ومن جديد، علت الصرخة من أجل الحرب المقدَّسة، وكذلك صرخات النبي أشعيا للرياح: «سوف أجمع لكم البذور من الشمال، ومن الغرب، ثم أضعها معاً. سأقول للشمال أَعطِ، وللجنوب: لا تمنع».

في شهر آب/ أغسطس من سنة 1189م وقف هذا الجيش المسيحي الجديد أمام أسوار عكّا، على مسافة ثمانية فراسخ جنوب صور. وقرّر صلاح الدِّين اللحاق به بالقوة التي كانت في حوزته، لكنه هذه المرة أيضاً وصل متأخّراً. فالمدينة كانت قد أصبحت معزولة، وقواته أقلّ عدداً من أن تقهر العدو المنتعش والمصمّم. فمع انتشار جيشه من حلب في الشمال إِلىٰ الكرك في مؤاب، لم يكن صلاح الدِّين قادراً على وضع حدّ للخطر الجديد. أمّا الجنود المسيحيون فقد صمدوا بعناد، فهم من جهة حاصروا المدينة، ومن جهة ثانية كانوا يمتنعون خلف خندق كبير حماهم من هجوم الخيالة المسلمين. وبذلك كانوا المهاجِمين والمهاجَمين في وقت واحد عاجزين عن التقدّم وعن التراجع.

مضى أكثر من شهر، حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1189م، في هجمات وهجمات مضادة، وبقي القتال حامياً ولكن غير حاسم. وفي 4 تشرين الأول/ أكتوبر، على كلّ حال، حصل اصطدام عنيف ودامٍ قُتل فيه مئات الرجال من

الطرفين، وأظهر خلاله الملك **غي**، غير الكفء عادة، حنكةً تستحقّ الثناء، كما تعاون وخصمه اللدود، كونراد دو مونتفرّا، تعاوناً وثيقاً وفعّالاً. والنتيجة كانت انتصاراً للمسلمين، لكنه غير نهائي؛ قام خلاله الطرفان بهجمات وهجمات مضادّة. وفي إحدى مراحل الصراع تمّ اكتساح معسكر صلاح الدِّين لكنه استجمع خيالة بلاد ما بين النهرين وقلب الموقف لصالحه.

في هذه المعركة تمّ إعدام آخر الشخصيات المسيحية الكبرى، جيرار دو ريدفور، مقدم فرسان الهيكل، بعد القبض عليه في هجوم جريء ولكن متهوّر. فجرى تطويبه قدّيساً على الفور. قيل إنّ أصدقاءه توسّلوا إليه كي يلين وينسحب، فأجاب بشجاعة: «أتحدّى أيّاً كان أن يسمّي مكاناً كنتُ فيه حين كان العدو يعتدي على الهيكل فهربتُ خائفاً». وهكذا أصبح مثير الفتنة شهيداً وقديساً. وكتب أحد المعلّقين كلمةً لإحياء ذكراه جاء فيها: «سعيد هو من أغدق عليه الله هذا المجد العظيم، فليكن له إكليل الغار الذي فاز به في حروب كثيرة وليُقبل كبيراً بين الشهداء».

بيد أن يوم عكا لم يكن يوماً سعيداً لأيّ من الجهتين. ففي محاولةٍ لإخافة المسيحيين وتثبيط همّتهم، رمى المسلمون بالعديد من ضحاياهم في النهر قرب البلدة، كي تستقرّ الجثث المنتفخة والعفنة في أسفل النهر عند خطوط المسيحيين. لكن هذا العمل الشنيع أعطى عكس النتيجة المرجوة وانتشر المرض في كلّ من جهتي الخنادق. وصلاح الدِّين نفسه أصابه الوهن بسبب المغص الذي كان يشكو منه غالباً، والأسوأ أنّه أصيب بالاكتئاب: «اقتلوني ومالكاً/ واقتلوا مالكاً معي»[1]، كان يردّد حزيناً هذا البيت، الذي كان يعني به على ما يبدو أنّه مستعدٌّ للموت، بشرط أن يموت معه أعداؤه. ونظر الأطباء نظرةً قلقة إلىٰ مرضه، وكذلك أمراؤه. ونصحوا كلّهم السلطان

(1) قاله عبدالله بن الزبير في موقعة الجمل بالبصرة سنة 36هـ عندما كان يصارع مالكاً الأشتر (المترجم).

بالانسحاب لصالحه ولصالح جيشه المنهك ولكن أيضاً ليسمح للجيش المسيحي بالتراجع، إن أراد.

لكن الجيش الصليبي لم ينسحب. وعوضاً عن ذلك حفر خنادق أعمق واستعدّ لأطول حصار في الحملة الصليبية الثالثة. وعندما استعاد صلاح الدِّين عافيته في كانون الثاني/ يناير سنة 1190م، جدّد نداءه حتّى أطراف العالم الإسلامي، من بغداد إلىٰ المغرب، لاستجلاب قواتٍ جديدة وكسر هذا الحصار الجهنمي. فكتب يقول «الإسلام يطلب مساعدتكم كما يصرخ الغريق طالباً النجدة»[1]. كان الأوروبيون مثل حبوب الذرة، لا يمكن أن تلتهمهم غير جنودٍ كالجراد. فضلاً على ذلك، كانت تصله التقارير عن اقتراب الإمبراطور الألماني، فريدريك بربروسا، من القسطنطينية على رأس قوّة تقدّر بمائتين وستّين ألف رجل، فوضع هذا النبأ السلطان في حالة من القلق الشديد. إذ لم يكن يعرف أنّ تلك القوة ستذوب بسرعة مع موت الإمبراطور في شهر تموز/ يوليو من تلك السنة.

أصبح لصلاح الدِّين الآن معارضون يحطّون من قدره ويؤولون القرآن ضدّه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ﴾ [سورة الرعد: 11]. مرّةً جديدة عادت أشكال الحسد والغيرة الضيقة إلىٰ الانتشار في العالم الإسلامي، ووصل الشِقاق حتّى معسكر صلاح الدِّين نفسه. وقد كتب مؤرّخ مسلم أنّ «الأشرار كثروا وملأوا المكان. إنّهم يشتمّون رائحة الفتنة، جدع الله الأنوف التي يشمّون بها». وهذا ما ثنى صلاح الدِّين عن الاستفادة من تقدّمه ضدّ القوّة المسيحية الشجاعة ولكن الصغيرة خلال السنة التي شهدت استنفار جيوش الحملة الصليبية الكبرى في أوروبا.

هكذا كان الوضع مأزقياً سنة 1191؛ عندما وصل ملك إنكلترا ريتشارد

(1) قارن بالفتح القسّي للأصفهاني، ص 197 – 198.

قلب الأسد وملك فرنسا فيليب أوغسطس إلىٰ صقلية من أجل الرحلة إلىٰ الديار المقدَّسة؛ وهذا ما علما به هناك: بقيت صور في أيدٍ مسيحيةٍ كموطىء قدم. لكن لا يمكن الاعتماد على مساعدة صاحبها المتعجرف، المركيز دو مونتفرّا. فريدريك بربروسا مات، وتفكّك جيشه في تركيا. مرّت سنة ونصف وعكّا تحت الحصار، لكن قائد الحصار هو **غي** الملك الضعيف، الذي تقوّضت شرعيته بسبب خطل رأيه، وقلة كفايته.